الطين الضعيف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

سألنى صديق عن شيء لماذا أفعله أو أتركه - فقد نسيت - فكان مما أذكر أنى قلته له إنى أعيش الآن كما أحب لا كما يجب، فقد جاوزت الأربعين، والذى بقى لى من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدمة لامحالة حين ترتفع بى السن فلا يبقى لى حينئذ من لذة الحياة إلا الوجود بمجرده لو أن هذا يفيد متعة، فمن حق فى هذه الفترة - التى أرجو أن تطول قبل أن يدركنى الذوى والذبول - أن أعتصر من الحياة كل ما يدخل فى الطوق اعتصاره من المتع واللذاذات، فأنا أقرأ ما أشتهى، وأذهب إلى حيث أريد، وأجالس من آنس به، ولا أبالى من غضب ممن رضى. فما فى الحياة مسحة لمبالاة ذلك؛ وأطلق نفسى على السجية كلما وسعنى ذلك، وليس للناس على أكثر من أن أؤدى واجباتى فيما عدا هذا

ودخل على وأنا أقول هذا لصديق شاب مهذب فحيا وقال إنه يقرأ الآن ديوانى، ففزعت ولكنى ابتسمت له وقلت «كان الله فى عونك. ومن الذى ابتلاك به...»

فأهمل السؤال وجوابه وأقبل على يسألنى: «انك تكتب بسرعة» فقلت «إن الذى أعرفه أنى أكتب فى غرفة تحيط بها جدران من الحجارة لا تنفذ العين منها على خلاف ما كان يصنع ديماس الذى كان يكتب على ما يقال فى دكان فيجىء الناس وينظرون اليه من وراء الزجاج.. أريد أن أعرف يا صاحبى ماذا تعنى بالسرعة»

قال «أعنى أنك تكتب إلى مجلات كذا وكذا وكذا.. وتكتب فى صحيفة يومية أيضاً.. هذا كثير.. فمتى تستطيع أن تكتب كل ذلك.. إنه نشاط عجيب...»

فقلت «جواب السؤال أنى أكتب وأنا نائم، فالذى تقرأه لى هو أضغاث أحلامى.. وأما النشاط يا صاحبى فذاك أنى مازلت فى شبابى»

فتركنى وهو يقول إنه يدرس ما أكتب وإنه ينوى أن ينشر بحثا، فاستعذت بالله وحاولت أن أصرفه عن هذا العناء الباطل فما أفلحت، فتوجهت إلى الله عسى أن يصرف عنى هذا السوء بطريقة ما.. وهل كثير على الله إن يشاء أن تشب النار فى كتبى التى عند هذا الشاب؛ أو تنقلب الدواة كلما هم بالكتابة، أو تجمد أصابعه أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل.؟

وانقض هذا المجلس، ولكن خاطرا ثقيلا ألح على وظل يدور فى نفسى، ذلك أن كل من ألقاهم من إخوانى يذكرون هذا النشاط. ولا يكتمون تعجبهم. فلم يسعنى إلا أن أتعجب مثلهم وإلا أن أسائل نفسى: «أكان هذا يبدو لهم منى مستغربا لو أنهم كانوا يرونى شابا فى العشرين من عمرى مثلا؟ أتراهم يستغربون لأنى فى ظنهم خلفت شبابى ورائى فالمنتظر من مثلى فى اعتقادهم هو الفتور...» ولم يعجبنى هذا التأويل فانه ثقيل على النفس، وآثرت أن أقول إنهم هم معدومو النشاط ولذلك يتعجبون لى. ثم إنى لا أحس الا أنى مازلت شابا. والعبرة بالاحساس لا بهذه الشعرات البيضاء التى يقول عنها ابن الرومى إنها تزيد ولا تبيد فهى مثل نار الحريق.. وما قيمة هذه الشعرات.. لقد ابيضت وأنا فى العشرين من عمرى، وكنت يومئذ بها فرحا مزهوا، وكنت أعدها مظهراً للرحولة ومدعاة للاحترام، فماذا حدث حتى صرت أبغضها.. أو لا أبغضها وإنما أنظر إليها فى المرآة فأزوم، وتقول شفتاى «هممممم»... ثم انى أرانى أجلد من أبناء العشرين، وأصبر على العناء والجهد، وأقدر على العمل والحركة، وأحسن تلقيا للحياة، وأسرع استجابة لدواعيها، فما قيمة هذا الذى تطالعنى به المرايا؟. وما حاجتى أنا إلى المرايا؟. ومتى كنت أنظر فيها حتى أنظر فيها اليوم؟. كلا.. إن امامى باذن الله حياة طويلة، وليست الحياة أن أظل باقيا فى الدنيا والسلام، وإنما هى أن أظل قادرا على العمل وكفؤا للأعباء، وهذا ما اعتقد أنه سيكون شأنى فما أشعر بدبيب الفتور ولا أرى أية علامة على ابتداء النضوب.

وضحكت وأنا أقول ذلك فقد تذكرت أنى قلت مرة لصاحب كان يحدثنى فى هذا الموضوع أو يسألنى على الأصح «هل تعرف حكاية الذى أراد أن يتزوج بنت السلطان.. لقد زعموا أن رجلا من الغوغاء زعم أنه سيتزوج بنت السلطان، فلما سألوه كيف يتسنى له ذلك، قال ان المسألة بسيطة؛ فقد رضيت أنا بزواجها

ولم يبق إلا أن يرضى السلطان . وكذلك أنا فقد عزمت أن أعيش إلى التسعين والمائة أيضا وأنا موافق على ذلك وراض بهذه القسمة وليس باقيا إلا أن يمالئني الحظ ويساعفني القدر ... »

ويتفق لي كثيرا أن أقف بالسيارة حيث يطيب لي الوقوف ، ويسرني حين أفعل ذلك أن أنظر إلى الناس وهم يروحون ويغدون وأن أتأمل ما يكون منهم وكيف يمشون وكيف يتحدثون ويميل بعضهم على بعض وكيف يذهلون عما يكون أمامهم لأن ما هم فيه من الحديث يستغرقهم فيصطدمون أو يحدث غير ذلك مما يضحك ويشرح صدر المتفرج . وأنظر أيضاً إلى الفتيات الناعدات وهن يمشين متخلعات متثنيات متقصعات وعيونهن دائرات في الرجال فاذا نظروا اليهن أغضين كأنما كن ينظرن عفوا . إلى آخر ما لا يسع المرء إلا أن يراه في الطريق ، فحدث يوما أني اشتريت شيئا من دكان ثم دخلت السيارة وقعدت فيها وشرعت أدخن وأجيل عيني في الناس فكان الرجال يمضون ويمرون بي ولا يعيرونني التفاتا ؛ أما الشبان فكانت عيونهم ترمقني خلسة . وأما الفتيات فكن يحدقن في وجهي صراحة ، فكنت ابتسم مسرورا بهذه المناظر . فمرت بي فتاتان بارعتا الجمال فلما بلغتا حيث كنت واقفا مالت إحداهما على الأخرى جداً وهمست وهي تنظر إلي : « ده عجوز » ، ومن الغريب أني سمعت الهمسة الخافتة على بعد مترين ، وأحسب أني ما كنت لأسمع ما تقول لو أنها صاحت بأعلى صوت . ما أحلاه وأجمله وأبرع شبابه ، وأكبر الظن أن الترام كان يمر حينئذ فيغرق هذا الثناء بضجته فيفوتني ما يسرني . أو تسقط عمارة فيفزع الناس ويذهلون ويشغل الخلق بذلك وأنا في جملتهم ... وأنا أتكلم أولا ثم أفكر بعد ذلك ؛ والأولى العكس ، ولكن هذا ما أصنع غير عامد . فلما سمعت الهمسة الثقيلة وأيتني أصيح بالفتاتين « فشرت . فشرتما . فشرتن » فضحكتا وتثنتا وذهبتا تعدوان

ولم يسؤني قول الفتاة إني « عجوز » فما كانت سنها تزيد على الرابعة عشرة وأنا فوق الأربعين بسنوات فهي طفلة بالقياس إلي وليس في وسعها إلا أن تحس هذا الفرق . وغير منتظر أن تدرك أن صباها صبي جسم لا أكثر . وان شبابها الذي تزهى به طراوة ولين وملاسة ونعومة . وعزيت نفسي بلهجة المتشفي به بأنها ستفقد ذلك كله حين تناهز الأربعين وأنها لن تجد يومئذ عوضاً عما فاتها وأن نفسها ستسبق جسمها إلى الذوى . على حين أظل أنا فيما أرجو شاب النفس لا يضيرني أن الزمن يكون قد حفر على وجهي وجلدي أخاديد عميقة . ومن العدل أن تباهي الفتاة وتزهى بما لا عوض عنه وليس من الانصاف أن أنكر عليها ذلك أو أكرهه منها

ثم رجعت أقول لنفسي ولكن ما قيمة شباب النفس وحده .. ؟ ماجدواه إذا فقد الجسم شبابه . . ؟ وتذكرت أبياتاً من قصيدة طويلة كنت قلتها منذ عشرين عاماً ولم أنشرها - بل نشرت بضع مئات منها في صحيفة أسبوعية -

أيها الطينُ ماترى بك أبغي ... لستَ - فيما أرى - لشيء كفاء
إن طلبتُ السماء قلت لي الأر ... ض - أو الأرض كنتَ لي عصّاء

إلى آخر هذا الهراء ... ولم يكن هذا الطين يستعصي عليه شيء يومئذ . وما قلت ذلك إلا في ساعة فتور شديد جعلني كاليائس أو النسياقا مع المعاني التي ولدتها روح القصيدة وأنا انظمها . ولم يكن يخطر لي أني سأذكر هذه الأبيات التي رميتها وأهملتها حتى مرت الفتاتان بعد عشرين عاماً ونظرت إحداهما - واحلاهما - إلى الشيب في فودي وقالت وهي تميل على صاحبتها « ده عجوز »

إيه يا فتاتي الصغيرة أما والله إني لأشتهي أن أفتح ذراعي وأضم كل فتاة خود مثلك - أضم ملايينكن دفعة واحدة في عناق مفرد كما أراد من نسيت اسمه - نيرون إذا كانت الذاكرة لم تخني - أن يضرب أعناقكن جميعاً بضربة سيف واحدة .. ولعله استسهل هذا واستخف مؤونته واستضأل كلفته . وإني لأرفق بكن منه - أو لعلي أقسى فما أدري - ولكنكن ملايين والطين ضعيف واه . . وإني لأراني كما يقول ابن الرومي :

ضعيفاً جباناً - اشتهي ثم أنتهي
بلحظي جنابَ الرزق لحظَ المجانب

وإني لأحس الحياة ثقيلة الوطأة على كاهل الصبر . . وإني لأعود في الليل إلى داري فتقول لي زوجتي ألا تستريح ؟ فأقول كلا . . لا راحة لي . . وأمضي إلى مكتبي وأجلس إليه وأهم بالكتابة فأرى النعاس يثني رأسي على صدري ، فأنهض متبرماً ، ساخطاً على هذه البلادة ، وأقول لنفسي وأنا أرتمي على الفراش أترى لو كنت في مجلس لهو وطرب أكنت أفتر هذا الفتور ؟

ويغلبني النوم قبل أن أسمع جواب النفس . . وإني ليكون أمامي الطعام الجيد المشتهى فأمد إليه يدي محاذراً وأتناول منه مترفقاً وعلى قدر مخافة الكظة أو الانتفاخ ، ولم أكن أبالي ذلك قبل سنوات . . وإني لأهم بزيارة الصديق فيصدني أن درجات سلمه كثيرة فأرتد وألعن أصحاب العمائر الذين لا يتخذون المصاعد . .

ولم يرضني هذا السخط على نفسي فقلت وأين هذا الفتور ؟ ومن ذا الذي لا يكل أحياناً ؟ . إني أعمل كالحمار بالليل والنهار وأكتب في اليوم الواحد فصولا ثلاثة أو أربعة لا أكثر من صحيفة واحدة . وأقطع بالسيارة أكثر من خمسين كيلو في نهاري ، وأسهر إلى منتصف الليل ، ثم أقوم في الفجر مع الديكة والعصافير وأقصد إلى مكتبي وأروح أدق على آلة الكتابة حتى لقد غير جاري غرفة نومه لكثرة ما أزعجه وأطير النوم عنه في الصباح الباكر . . وأنا أجالس الناس وأحادثهم وأفعل مايفعله المرء بشبابه ولا أراني أكل أو أهني أو أمل أو أفتر . . وإن رأسي لدائب لا يكف عن العمل في يقظة أو نوم ؛ ولو كنت أقيد مايدور في نفسي لوسعني أن أملأ الدنيا كلاماً ، ولكن المصيبة أني لا أقيد شيئاً وأني أنسى ، فالذي يبقى لي لا يعدل جزءا من مائة مما يخطر لي ، وإذا كانت لي شكاة فتلك أني لا أفتر ولا أراني أقنع بما أستطيع وما يدخل في وسعي . ولقد قال لي مرة طبيب حاذق شكوت إليه أني لا أهدأ — إن بنائي كله من الأعصاب ، وأن جسمي ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لي هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك ، ثم كسي هذا كله جلداً رقيقاً ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان ، ولكن المهم هو هذه الأعصاب ؛ فاذا كنت أشكو شيئاً في بعض الأحيان فيحسن بي أن أعرف أنه من الأعصاب ليس إلا ، فأرحها حين تتعب تعد كما كانت فانها متينة . وأكبر الظن أن هذه ليست أعصاباً وإنما هي « جنازير من الحديد » ، ويكفي أنها تتحملك ، كذلك قال . ودليل صدقه أني لم أشك شيئاً قط مذ سمعت منه هذا ؛ ولو كان بي شيء غير هذه الأعصاب لما تفعني كلامه . ولقد خرجت من عنده إلى صيدلية فيها ميزان فوقفت عليه فاذا بي — بثيابي الشتوية لا أزن أكثر من سبعة وأربعين كيلو ، فضحكت وقلت : « كم ترى يكون وزني في الحمام . . بغير هذه الثياب . . أو في الصيف الذي يستدعي التخفيف . . صدق الطبيب الحاذق فما هذا بجسم إلا على المجاز . . ولكن هذا البناء الواهي يحتمل النوم على الرمال وتوسد الحجارة . نعم فاني كثيرا ماأخرج إلى الصحراء فأرتمي على رمالها ساعة وساعتين وتحت رأسي حجر صلد كبير . وفي بيتي أترك الفراش الوثير إلى الكراسي الخشنة التي لا راحة لمخلوق عليها . . وأفتح النوافذ وأقعد أو أنام بين تيارات الهواء ولا أرى ذلك يضيرني . وأحسب هذا وراثة . فقد كانت أمي رحمها الله تنام وأنفها إلى النافذة المفتوحة — صيفاً وشتاء . نعم أزكم أحياناً ولكن الفيل يزكم . . وساقي مهيضة ولكني لا أتعب من المشي وإنما أتعب من الوقوف . . ولم أتخذ المدفأة قط ، فاذا أوقدوا في بيتنا ناراً تركت لهم الغرفة إلى أخرى لا نار فيها . . وما لبست معطفاً إلا في أعقاب مرض وعلى سبيل الوقاية إلى حين . . وإني لأرى متاعة جسمي تزداد عاماً فعاما وأراني كلما علت سني أحس أني صرت أقوى وأصح بدنا وأقدر على العمل والحركة والجهد . . فلست بعجوز يافتاتي الصغيرة وإني وحياتك لأصبى من ابني . وان الذي في عروق لنار سائلة لادماء جارية ، وقد أحسنت بالانصراف بعد تلك الضحكة الفضية التي ستظل في مسمعي تذكرني بك وتصيبني إلى أترابك والسلام عليك والشكر لك . وإلى الملتقى ، وأين مني يهرب الهارب ؟ » ...

ابراهيم عبد القادر المازني

كتابان جديدان

الشخصية

التربية الانكليزية

تأليف الاستاذ محمد عطية الابراشي

أول كتابين ظهرا في اللغة العربية عن المثل الأعلى للشخصية الانسانية ، والتربية الانكليزية الاستقلالية في البيت والمدرسة . وهما خلاصة عشرات من الكتب .

وثمن الأول ٨ م ، والثاني ١٢ م

يطلبان من ملتزمة نشرهما

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر